

المركزيات البطيركية في رواية "بوابة الذكريات" لأسيا جبار

صراع السلطة الأبوية والمرجعيات

Patriarchal centralities in the novel "The Gate of Memories" by Asia Jabbar; The struggle of patriarchal authority and references

* الدكتور مكّي سعدالله

جامعة تبسه - الجزائر -

Saadallah_58@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/01/29 تاريخ القبول: 2024/06/13

ملخص

السرد النسوي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، ظاهرة إبداعية وثقافية تستدعي البحث في الأنساق للكشف عن المضمر والمسكوت عنه. فالمساءلة العلمية والمقاربة الموضوعية تقتضي النباش في الآثار لإضاءة الجوانب المعتمدة حول بعض القضايا الجوهرية والمركزية والتي تتقاطع خاصة مع المرجعيات الوطنية والدينية والإنسانية في تناص واستعارة وظيفية أو في رفض أيديولوجي منهجي. لقد أثارت الرواية آسيا جبار في روايتها "بوابة الذكريات" مسائل فلسفية وقضايا اجتماعية ترتبط بإبداعها ككاتبة مهاجرة تحمل همومها وهموم وطنها، فتربعت علاقتها بابيها على فضاء كبير من تركيبة الأحداث السير - ذاتية وبنيتها الفنية، فجاء سردها مشحونا بعواطف وأفكار ذات دلالات ومحمولات فكرية وثقافية تتناقض حيناً وتتصادم أحياناً أخرى مع موروثات اجتماعية ودينية، مما يُحدث ويُنتج تصدعات في الهوية. لا تُمثّل هذه الرؤى ثورة على المركزية الذكورية ولا تمرداً على السلطة البطيركية، بقدر ما هي ردود أفعال عفوية على سلوكيات ومواقف أفرزتها ملابسات الحياة وصراع الأجيال والثقافات ضمن فضاء جزائري امتزجت فيه الثقافات والأجناس تحت سلطة وهيمنة استعمارية بأجهزتها الثقافية والأيدولوجية رافضة لكل مثاقفة ندية.

كلمات مفتاحية: آسيا جبار - بوابة الذكريات - البطيركية - السلطة - المرجعيات

abstract

The Algerian feminist narrative, written in the French language, is a creative and cultural phenomenon that calls for research in patterns to uncover the implicit and the unspoken. Scientific accountability and an objective approach require digging into antiquities to illuminate the dark aspects around some fundamental and central issues that intersect especially with national, religious and humanitarian references in functional intertextuality and metaphor or in systematic ideological rejection. The novelist Assia Jabbar, in her novel "The Gate of Memories", raised philosophical issues and social issues related to her creativity as an immigrant writer carrying her concerns and the concerns of her homeland. Sometimes and sometimes clash with social and religious legacies.

Keywords: Asia Jabbar - Gate of Memories - Patriarchy - Power - References

● مقدمة

عرفت الإنسانية أشكالاً وأنماطاً متعددة ومتنوعة من الأنظمة الاجتماعية متطلعة في ذلك إلى إيجاد صيغ واطر وأنظمة قيادية ناجعة ترسي بسفينة الأسرة إلى بر الأمان وتقضي على الصراعات والنزاعات الأسرية خاصة والاجتماعية عامة، في سعي حثيث ومتجدد يتميز بإدماج العاطفة والعقل في منظومة التسيير والتوجيه، فتجلت العاطفة في روابط الدم وصلات الأرحام، بينما يجسد العقل الجانب التشريعي العقلاني لإحداث التوازن والتوافق والتناسق والانسجام للوصول إلى تحقيق غاية هادفة ونتيجة سامية تتعلق بالتماسك الأسري واستقراره في وحدة اجتماعية جامعة للهويات والخصوصيات الثقافية.

وللوصول إلى هذه الطموحات وتحقيقها جربت المجتمعات البشرية اضرباً مختلفة من النظم الاجتماعية، انطلاقاً من مرجعياتها المختلفة وثقافتها المتنوعة وأعرافها الكثيرة. فكانت الحوكمة الثنائية؛ الأمومية والأبوية أبرز وأهم الأنظمة التي تداولتها المجتمعات البدائية، ممارسة وتطبيقاً.

فقد سيطرت البنية الأمومية على تسيير المجتمعات في العصور الأولى لفجر البشرية، فقد هيمنت المرأة بسلطة تكاد تكون مطلقة في العصر الحجري (1) على الحياة الاقتصادية عامة والزراعة خاصة، فهي القائمة على الغرسة والسقي والقطف والتسويق، بالإضافة إلى إدارة البيت ورعاية الأطفال مما قلص دور الرجل وأصبح هامشاً سلبياً أمام سلطة وهيبة وخطاب أنثوي مهيمن ومنتج « تعود فكرة سلطة النظام الأمومي إلى عصور ما قبل التاريخ كمرحلة عامة لجميع المجتمعات البشرية وقد سبقت هذه السيطرة "الثورة الأبوية" وهيمنة الجنس الذكوري الذي لا يزال موجوداً حتى اليوم» (2). انتقلت السلطة بين الجنسين والمنظومتين والثقافتين والأيدولوجيتين عبر قنوات تباينت بين الضرورة والرغبة والصراع والثورة ومازالت أشكال التواصل معقدة ومركبة تتمظهر في بُنيات وخطابات متعددة الشكل والمحتوى.

1. فلسفة البنية البطيركية؛ بين عاطفة الأبوة والفكر الذكوري

ينأى البحث عن التأصيل لمنظومة البطيركية، كنظام مهيكّل ومنظم ومسير لبنية الأسرة، كامتداد لأنظمة القبيلة والعشيرة والأسرة الممتدة والمركبة، التي سادت وهيمنت على إدارة المجتمعات عبر الامتداد التاريخي، فالبحث يسعى إلى توضيح الأنساق الثقافية التي مكنت الفكر الذكوري من الانتشار وباركت مشروعيته في الإدارة والحكم، بقابلية الأنتى ورضاها في مدارات ومسارات كثيرة، تميز كل محطة بخصائص تميزها عن سابقتها نظرياً وطرحاً ورهاناً، مما جعل بعض الأطروحات تثيراً جدلاً ولغظاً وصداماً مع المرجعيات الدينية والاجتماعية والوطنية.

¹ - تناولت دراسات وأبحاث كثيرة موضوع المجتمع الأمومي وخصائصه ومنها:

كتاب لويس ممفورد (Lewis Mumford) "المدينة عبر التاريخ" (The City in History) وكتاب جوزيف كامبل (Joseph Campbell) "أقنعة الله" : الميثولوجيا الشرقية (The Masks of God : Oriental Mythology) وجزئه الثاني "أقنعة الله" : الميثولوجيا الغربية؛ "The Masks of Gog M Occidental Mythology" وكتاب جاكيتا هوكس (Jacquetta Hawkes) "ما قبل التاريخ" (Pré-history).

حيث تشكل هذه المراجع بيبليوغرافيات رائدة في تصوير وضعية المرأة وإدارتها للمجتمعات حتى سميت تلك المرحلة بـ "المجتمع الامومي (société matriarcale)

² - Jacques Cauvin, La question du « matriarcat préhistorique » et le rôle de la femme dans la préhistoire, In: La femme dans le monde méditerranéen. I. Antiquité. Lyon : Maison de l'Orient et de la Méditerranée Jean Pouilloux, 1985. P, 7

والهيمنة الذكورية بتعبير بيار بورديو (Pierre Bourdieu) تختلف عن الفكر البطريركي، فالبطريركية أو الحكم الأبوي رغبة أبوية وسيطرة تحت أقنعة الأسرة وروابط الدم والوصاية على مجموعة بشرية لأغراض وأهداف الرعاية العاطفية، باعتبار الأسرة اللبنة والنواة الساسة والمركزية في بناء المجتمع والأمة.

فلهيمنة الذكورية ثقافة وذهنية شكل حضورها نفوذاً واستمرارية عبر التاريخ وتجلت في في سلب الأهلية والاستقلالية عن المرأة وحرمانها من حقوقها فهي « شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي والقانوني القائم على سيطرة الرجل على السلطة بإقصاء واستبعاد صريح للمرأة»⁽¹⁾

وأنتجت هذه الثقافة بروز الحركات النسوية كموجات مناهضة ومحاربة ومواجهة لهذا المظهر و الضرب من التفكير والتشريع الذي يدعو إلى التطرف بالتركيز على الضعف العقلي للمرأة وتعظيم خطيئتها وبضعة جسدها وتحديد قوامتها، مما دفع بالباحثين والانثربولوجيين إلى التفريق بين البنية الأبوية والفكر الذكوري، فمع الموجة الثانية من الحركة النسوية في أواخر السبعينيات أصبحت البطريركية تعني « النظام الذي يجسد فيه الذكر كل من التعالي والفكر الإنساني»⁽²⁾ فوقع الارتحال المفاهيمي والاصطلاحي من قيادة الأب (le commandement du père) المشتق من المصطلح اليوناني (patriarkhēs) المرادف للفظ (patria) والذي من دلالاته (النسب والنسل الأبوي) والذي منه اشتقت كلمة (patēr) التي تعني الأب، ليكون المجموع دلالة (القائد والأمر والحاكم).

وكان لهذا التطور الدلالي والارتحال المعرفي انعكاسات على تأويل الظاهرة وقراءتها، فتعددت المقاربات وتنوعت المناهج في الدراسة والتحليل، فاعتبرت النظر الانثربولوجية استمرارية إرادية لمفهوم القبيلة والأسرة البدائية التي تقدس سلطتي المال والقوة بالإضافة إلى مركزية الذكر كمنتج للخصوبة ورمز للاستمرارية. وتعتقد الدراسات النفسية بأن الهيمنة الذكورية إثبات ذكوري لشخصية منهزمة، وفاشلة ومرتبلة وسطحية عجزت عن تحقيق ذاتها في حقول وميادين سياسية واقتصادية واجتماعية، فجعلت من الأنثى معادلاً موضوعياً لإسقاط العقد النفسية والأمراض السيكولوجية والفشل الاجتماعي.⁽³⁾

وترى المقاربة الأيديولوجية والاقتصادية أن الذكورية فكر طبقي وأن البطريركية والرأسمالية توأم، فكل تشكيل رأسمالي يحمل ركيزة ذكورية تسنده وتؤيد مواقفها في الاستغلال والسيادة. فالرأسمالية تقلب الأسرة إلى وحدات اجتماعية تخدم أهدافها وتوفر لها الأيدي العاملة لاستمرار عجلتها، ولكنها وبصورة موازية، لا تصنع ذلك بالقهر المادي دون اعتمادها على القهر المعنوي من خلال تبديل الرؤى والتصورات حول العمل المادي، وتحويله إلى قيمة في حد ذاته، وهدف محوري من وجود الإنسان مهما تأخرت راحة المرء النفسية وتأثرت أدواره الاجتماعية والأسرية.⁽⁴⁾

إن الكثير من الباحثين يعتقدون بأن البطريركية ثقافة وفكر متجذر في الوعي البشري وليست قوانين يمكن اختراقها وتجاوزها، كما أنها ليست أعراقاً موروثاً عن ثقافات شعبية فلكلورية يمكن التمرد عليها واستبدالها بغيرها وإنما الهيمنة الذكورية ثقافة «يتم تعريف النظام الأبوي على أنه ثقافة تقوم

¹ – Pierre Bonte et Michel Izard (dir.), Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie, Presses universitaires de France, 1991, p. 455.

² – Ivan Jablonka, Des hommes justes. Du patriarcat aux nouvelles masculinités, Ed. Seuil, 2019, p. 98.

³ - Marie Garrau, Une approche psychologique du patriarcat? Revue Multitudes 2020/2 (n° 79), p, 186

⁴ – Christine Vanden Daelen , Camille Bruneau Capitalisme et patriarcat : Deux systèmes qui se nourrissent l'un de l'autre, CADTM, 2020, <https://www.cadtm.org/Capitalisme-et-patriarcat-Deux-systemes-qui-se-nourrissent-l-un-de-l-autre>

على ثنائية الجنس والتسلسل الهرمي للأجناس»⁽¹⁾ ومن سمات الثقافة الاستمرارية والتجديد والتكيف والتجلي تحت أفئدة ومظاهر متنوعة في الشكل والمضمون والأطر والآفاق ولعل هذا ما يفسر دوام البطيركية واستمرارها عبر العصور والثقافات⁽²⁾ والنظام الذكوري يتجاوز المفاهيم الكلاسيكية للظاهرة السوسيو- ثقافية ليتجلى في حقول وميادين حياتية متنوعة، تتقاطع مع الأنظمة الاقتصادية والسياسية، فتري الباحثة الانثروبولوجية الفرنسية نيكول كلود ماثيو (2014 -1937) بأن البطيركية «هي تمكن الذكر من تجميع السلطات الثلاث التي لم يشهد التاريخ مطلقاً أنها كانت بيد الأنثى، والسلطات هي ((سلطة القرار السياسي (قرارات الحرب والسلم والانتخاب) وسلطة القرار الاقتصادي (التعامل مع فائض الإنتاج والثروة وتسيير الموارد) وسلطة القرار في امتلاك الأراضي (بالميراث الأبوي)»⁽³⁾. وبحرمان الأنثى من هذه السلطات الثلاث تفقد هويتها وكيونتها، ذلك أن البنية العامة للشخصية تتركز وتتبلور حول وجودها السياسي والمادي.

2.البطيركية العربية

عرفت المنظومة الفكرية العربية دعوات وكتابات في مقاربة تيمة النسوية انطلاقاً من كتابات قاسم أمين في مؤلفيه التأسيسيين (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) أو من مبادرات خطابية أنتجت رائدات فكرة التحرير والتنوير للمرأة وتحلت النداءات الأكثر جرأة عند نوال السعداوي وفاطمة المرنيسي ورجاء بن سلامة وبدرجات متفاوتة بين المطالب العقلانية والرغبات المتطرفة.

وفي نقد بنية المجتمع الأبوي يطفو كتاب هشام شرابي (النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي) كمرجع عربي وأطروحة فكرية/ثقافية تناقش أحد أخطر الموضوعات المكسوت عنها والمضمرة كنسف فكري في الثقافة العربية. وليس المقام هنا مقام تقييم وتقويم للمراجعات وللمقاربات في رؤيته النقدية لهيكل المجتمع العربي وتعامله بالتراتبية الذكورية وإسقاطه لهذه الظاهرة على أسباب تخلف العرب وتفسير وتبرير لانحطاطهم الفكري والتقني والحضاري. فالهيمنة الذكورية وسلطتها كانت سدا وحاجزا أمام الانتقال الحضاري « إن التخلف الذي نواجهه هو من نوع آخر، انه يكمن في أعماق الحضارة الابوية و(الابوية المستحدثة)، ويسري في كل أطراف بنية المجتمع والفرد، وينتقل من جيل لآخر كالمرض العضال. وهو أيضا مرض لا تكشف عنه الفحوص، وتعجز عن تفسيره الأرقام والإحصاءات. انه حضور لا يغيب لحظة واحدة عن حياتنا الاجتماعية، نتقبله عن غير وعي وتعايش معه كما نتقبل الموت نهاية لا مهرب منه نرفضها وتتناساها في آن»⁽⁴⁾

فالتخلف في اعتقاده متجذر فكرا وممارسة في المنظومة الفكرية والاجتماعية العربية واستمراره حقيقة وواقع لا يمكن اقتلاع جذوره إلا بالقضاء على أصوله ومنابعه ومناهله التي شكلته وأسسته وأصلت له في تراث اكتسب روح القداسة والقدسية «إننا في حاجة إلى التخلص من الفكر الخطابي ومن دكتاتورية الصرف والنحو، إلى غسل الكلمات من أصدائها الأبوية المصنعة، إلى ابتكار معانٍ جديدة، ومفاهيم جديدة تخرجنا من الوعي الأبوي (والأبوي المستحدث) وتسير بنا نحو وعي جديد نصنعه نحن بلغتنا الجديدة وفكرنا الحر الحديث»⁽⁵⁾.

¹ - Carol Gilligan, Naomi Snider, Pourquoi le patriarcat ?, Paris, Climats, 2019, p. 13-14.

² - Fabienne Brugère, La persistance du patriarcat, in Multitudes 2020/2 (n° 79), p. 193

³ - Nicole-Claude Mathieu (coord.), L'arraisonnement des femmes. Essais en anthropologie des sexes, École des hautes études en sciences sociales, Paris, 1985.

⁴ - هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر محمد شريح، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، 1992، بيروت، ص، 14

⁵ - المرجع نفسه، ص، 15

وكان لكتاب بيار بورديو⁽¹⁾ وقعا وصدى مثيرا للجدل، فجاء التلقي انفتاح على الفكر الذكوري وتجلياته في الفكر والثقافة والفن والدين، مما دفع أنصار الحركات النسوية إلى الاستثمار في أفكاره ومضامينه في محاولة لتفكيك منظومة ذكورية عربية هيمنت في رأيهم على الحياة بمختلف حقولها وميادينها.

وإذا كانت الأنظمة الأبوية والبطركية في العالم وليدة النظريات الفلسفية والجنديرية ورؤى إعادة بناء الفكر الاجتماعي، من حيث التشريع والبنية والهيكل والهندسة القانونية، فإن المفهوم العربي للبنية الأبوية يعود إلى تأسيس المجتمع التقليدي الذي تعود فيه القيادة للأب، تحت معايير ونظم مشروعة وأخرى تقليدية متوارثة، فتتحول الأسرة والقبيلة إلى مؤسسة بهيمنة ذكورية تخضع لتراتبية النسل في التسيير والتوجيه بقوة التشريعين البيولوجي والسوسيوي - ثقافي.

ومع التحولات الاجتماعية والتغيرات الثقافية تزداد الأبوية عن نواة الأسرة الصغيرة والمجتمع عامة، لتأخذ أشكالا أخرى من الهيمنة والقيادة الذكورية التي تجاوزت البطركية التقليدية لتشكّل منظومة جديدة ومستحدثة تسيّر هياكل الدولة والأمة وتتمظهر في الزعامات والسياسات بحمولاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (البنية الكلية والجزئية) « البطركية أهم ظاهرة تعيد إنتاجها الأسرة العربية عبر مراحل تطورها، وفي مختلف المجتمعات العربية، بمختلف تشكيلاتها وفي مدنها وأريافها وفي ما يسود فيه من خطاب قيمي تربوي وتعليمي»⁽²⁾

3. آسيا جبار؛ نقد وتفكيك البطركية

لا يعثر الباحث بمراجعة كرونولوجية للمنجز الإبداعي للروائية آسيا جبار (فاطمة الزهراء إملحانين) (1936 - 2015) على مواقف صريحة حول قضايا المخطور الديني والطابوهات والامتداد الفكري للحركات النسوية العربية تكشف عن رؤى وأيديولوجية الكاتبة، مما يصدم المتلقي الجزائري ويجعله يتخذ إجراءات نقدية حول المنتج الإبداعي.

فعلى الرغم من كتاباتها بالفرنسية وانتمائها للفكر الفرنكفوني ببنيته اللسانية والفكرية، وإطلاعها على المنظومات الفكرية وأدبيات الحركات النسوية ممارسة ودعوة في العالم عامة وفرنسا خاصة، من خلال نشاطات أدبياتها ومناضلاتها وثأراتها من أولمب دوغوج (Olympe Gouges) (1793-1748) محررة أول بيان حول (حقوق المرأة والمواطنة) سنة 1791 ووصولاً إلى سيمون دي بوفوار (Simone De Beauvoir) (1986-1908) صاحبة المقولة الشهيرة في كتابها المرجع، "الجنس الثاني" « نحن لا نولد امرأة؛ بل نصبحها » (On ne naît pas femme : on le devient)⁽³⁾ استناداً إلى المبدأ الفلسفي الوجودي، القائم على رفض الانصياع والخضوع وأن لكل إنسان حرية تمكنه من عدم الخضوع لأي مصير محدد مسبقاً، وبناءً عليه رفض مبدأ "الطبيعة الأنثوية" (nature feminine)⁽⁴⁾ لم نثر لها على تأييد للفيمينيست ولا في كتاباتها على تركز حول الأنثى. أو مطالبة بحقوق تتناقض مع التشريع الإسلامي (المساواة في الإرث والإجهاض) أو تتعارض مع القيم الاجتماعية كإسقاط الولاية وإنكار الولي وغيرها من القضايا والمسائل المثيرة للجدل والصدام والمناظرة.

¹ - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر سلمان قعفراني، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

² - الطاهر لبيب، الأسرة العربية، مقاربات نظرية، المستقبل العربي، السنة 27، العدد 308، 2004، ص، 87

³ - Simone de Beauvoir, *Le deuxième sexe*, t. II (L'expérience vécue), Paris, Gallimard, 1949, p.13

⁴ - Marie-Sandrine Sgherri, « Simone de Beauvoir »: « On ne naît pas femme, on le devient » le point.fr, 5 décembre 2017 (consulté le 2 novembre 2022)

فالمستعرض لتاريخ موجات الحركات النسوية ومحطاتها المركزية في الغرب، يلاحظ تطور المطالب والوعي الأنثوي بوجود المساهمة والمشاركة في العمل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. فكانت فكرة الطبيعة الأنثوية ممثلة للرفض القاطع لتصنيف العمل والفكر وفق معايير جنسية، تجعل من المرأة كائناً ثانوياً غير مؤهل للعمل⁽¹⁾.

إن مفهوم البطريكية في كتابات آسيا جبار يتجاوز الثورة النسوية والجنسانية وينأى عن منظوماتها الفكرية والثقافية، كما يبعد عن الثورة والتمرد على القيم بمختلف أشكالها الدينية والثقافية والفلكلورية الشعبية المجسدة في الأعراف الشعبية، بقدر ما هي انتقادات جاءت ضمن سياقات محددة في الزمان والمكان ومرتبطة بسانكرونية ودياكرونية فرضتها وأملتها ارغامات واکراهات سياسية واجتماعية محددة.

ذلك أن الأب في رواية (بوابة الذكريات) معلم لغة فرنسية، عربي ضمن أوروبيين، يكرهون الأهالي ويناضلون في سبيل بقاء الاستعمار، فتأسست شخصيته على جملة من المتناقضات جمعت بين المرجعية العربية والامازيغية والإسلامية وبين ثقافة فرنسية وغربية بمحمولاتها الدلالية والتي تجد فضاء ولو بسيطاً في الشعور واللاشعور، وفي وعيه ولا وعيه، فهو يدرس الفرنسية محاولاً تحمل مسؤولية المعلم والمصلح الوطني الذي يرغب في تعليم أبناء وطنه بعد إقصائهم من السلطة الاستعمارية.

4. جدل المرجعية وأزمة الإدراك

يضطر المتلقي لرواية "بوابة الذكريات" إلى تفكيك رمزية بعض الصور المشهدة الأولى والمعبرة عن صدام المرجعية الوطنية التاريخية (الموقف الأبوي) بطفولة الفكر وأزمة النضج العقلي (رفض الموقف البطريكي) ذلك أن القضايا الوطنية تستوجب بناءً فكرياً ناضجاً، يستوعب المواقف ويتبنى المسائل الوطنية ويضحي من أجلها ويعاني بسببها ويغلب الوطنية ومصلحتها عن الفرحة واللذة الذاتية والشخصية، ذلك أن خلود الوطن يقع في هرم الأولويات والرغبات ومعه تسقط الذات وتتماهى فيه، بمعية الانتماء والهوية. فقداسة الأب ومكانته تشظت واضطربت تحت سلطة العجز الذهني والنضج العقلي في إدراك الرهانات «أتذكر المشهد وكان الأمر قد حدث أمس أو السنة الماضية، وما لفت انتباهي هو تلك الابتسامة الصغيرة الغريبة على وجه أبي»⁽²⁾ يمثل الأب مصدراً للقدوة والقداصة والفخر والاعتزاز، فهو نموذج للتشجيع والنجاح والقيم النبيلة ولذلك يشكل فرحه وغضبه محطة رئيسة وجوهرية في حياة الأبناء، ولكن المفارقة جسدتها صدمة اصطدام العقل الطفولي/المدرسي والتعليمي، بالبعد التاريخي والموقف الوطني، فالصورة الخبيثة جمعت المتناقضات والمتضادات حين جمعت بين المكافأة التشجيعية للمتفوقة الدراسية وبين الرمزية الكولونيالية التي تجسدها صورة المارشال بيتان ((Philippe Pétain)(1856-1951) فخطاب الصورة المرئي يوحى للذاكرة التاريخية الجزائرية بالقتل والتشريد والتعذيب والإبادة.

¹ - شهدت سنوات 1860 بفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية جدلاً كبيراً ومناظرات حادة، حول دخول المرأة وولوجها الحقل الطبي، باعتبار الممارسة الطبية مهنة ذكورية وأن الأخلاق العامة تمنع الأنثى من الانتماء والممارسة

ينظر:

Natalie Pigeard-Micault, « « Nature féminine » et doctresses (1868-1930) », Histoire, médecine et santé [Online], 3 | printemps 2013, Online since 01 July 2013, connection on 13 November 2022. URL: <http://journals.openedition.org/hms/507>

تختلط قراءة المواقف بين الضعف الإدراكي للمعاني والدلالات والرفض البطريكي، فقد عجزت الطفلة في العديد من المواقف تفسير سلوكيات والدها « في الفناء الثاني، يخطو المعلم ((الأهلي)) أي أبي، خطواته المعتادة جيئة وذهابا ... وهو يراقب التلاميذ قبل ((الدراسة الإضافية)) هذه. يضم قسمه جميع المستويات وجميع الأعمار»⁽¹⁾

إن مسؤوليات المعلم "الأهلي" تتجاوز جهوده التعليمية إلى الحرص الوطني في القضاء على الأمية وترسيخ القيم الوطنية، لذلك نلاحظ تفاوت الأعمار في أقسامه بالإضافة إلى العنصرية الأوروبية التي ترفض هذا النوع من التكوين ومن الزمالة.

يجسد مشهد الصمت والسكون في التفاعل مع فرحة البنت/التلميذة بجائزتها صراع العاطفة الأبوية والنزعة الوطنية التي انتصرت وتفوقت في النهاية « ولكن ها هو المشهد قد أصبح معلقا: كما لو أن إخفاقا ما قد حصل. استعصى عليها الفهم وبقيت مدة طويلة رافعة ذراعها إلى السماء مشهرة كتابها الذي يحمل صورة الماريشال»⁽²⁾ فقد اكتسى لوم التلميذة وغضبها ورفض رد فعل والدها صورة للثورة والتمرد الصامت والرافض للموقف والاستجابة ولكنه لم يصل مستويات الانفصال والانقطاع والاعتزاب والانتماء.

أشار علماء النفس على أهمية مرحلة الطفولة في التأسيس للشخصية السوية وبنائها المتوازن، القادر على تقديم الإضافة والتكيف مع المستجدات والتأقلم مع الوضعيات الجديدة والمستحدثة والمترفعة عن العقد السيكلوجية المنتجة للاضطرابات والاهتزازات.

فكانت رواية "بوابة الذكريات" مخزنا ووعاءً يحتوي مواقف طفولية لتلميذة لم تدرك بعد اختلاف الثقافات والعادات والأعراف ولم تع الكولونيالية بوجودها الثقافي والعسكري، كما لم تفهم صراع الوافد والمحلي والمعبر والأهلي (الأهلي، المصطلح الاستعماري لأبناء الجزائر الأصليين)، فعجزت الذات الصغيرة وفشلت في الاستيعاب والوعي بالذات والهوية والقضية.

فسَّرت البنت/ التلميذة سلوكيات "الأب" بفكرها البدائي، بإسقاط ثقافي انثربولوجي يتمثل في السلطة الأبوية القاسية والثقيلة وغير المبررة واللاعقلانية في اعتقادها « لقد احتفظت من نظرة أبيها، وبخاصة من نصف ابتسامته الساخرة ... بردة فعل الأب غير المتوقعة: حرك رأسه، قرأ العنوان، ثم رسم تجاه ابنته ابتسامته. ساخرة؟ بيد أن صغر سنّها حال دون إدراكها الفارق»⁽³⁾

لاحظت البنت/التلميذة سلطة مطلقة للأب في تسيير شؤون البيت والمعاملة مع الأم وبقية الأبناء كمتملكات خاصة، مع الالتزام بصورة نمطية تجسدها منظومة ثقافية وهمية تمنح تضخما متخيلا للذات فتعتقد بالأحقية والمشروعية وربما بالكمال الذي يسقطها ويوقعها في التناقض والازدواجية في أحيان كثيرة « الأب لا يضحك، يلاحظ كل شيء بخيلاء، وكأنه يفعل ذلك لنفسه. في الغالب، لا يتحدث حول المائدة. شيء ما من قسوة المعلم يظل قائما كل مساء في المطبخ حيث نتناول العشاء في صمت، لا على مائدة سفلية كما عند الأسر الأهلية الأخرى، بل على الطريقة الأوروبية، على مائدة عالية، وهذا حتى عندما كانت جدتي من أبي التي كانت تعيش معنا على قيد الحياة، كانت تتعشى مثلنا»⁽⁴⁾.

¹ - المدونة، ص 37، 38

² - المدونة، ص 40

³ - المدونة، ص 41

⁴ - المدونة، ص 56

التمظهر الطفولي للرفض تبلور لاحقاً مع الوعي والإدراك الثقافي في انتقادات لاذعة لسلوكيات مركزية ذكورية كانت تستدعي الحوار والمناقشة. فالكثير من المواقف لم تكن مقبولة ولا مقنعة، فأغلبها استجابات مصطنعة للعادات أو مكابرة نفسية واعتقاد خرافي لذكورة مضطربة وأبوة منفصمة عن جوهرها ومعدنّها عاطفتها « إن أبي كان لطيفاً رقيقاً، في غرفة الزوجية، رقيقاً وفظاً في الوقت ذاته!»⁽¹⁾.

إن انتقاد الكاتبة لصورة "الأب" وتصرفاته، تخفي رفضاً لثقافة ورجعية محددة، ترى فيها تكريساً لسلطة أبوية قمعية، وهي سلطة ظاهرية ومصطنعة، تضمر في سياقاتها نفساً وذاتاً مريضة، عاجزة عن إثبات وجودها وكيونيتها، بسبب ازدواجية وصراع الظاهر والباطن والمضمر والجلي والسلوك والتفكير، والمرجعية والواقع والعقل والعاطفة.

5. مفارقة الفرد والنوع؛ التكامل بدل الإلغاء

جدل الفرد والنوع صراع كينونة ووجود تمتد جذوره إلى مراحل التاريخ الإنساني القديم والبدائي، ذلك أن الفرد هو وجود حقيقي واقعي يتجاوز المجازية والإلغاء والاختزال، أنه إثبات للشخصية في حرمتها وحركيتها وتفكيرها وسلوكها المستقل دون قمع وضغط وتهديد وإنكار وتجاهل واستصغار للقوى والقوامة، في حين يجسد النوع الهوية الجينية التي تحدد الذكورة والأنوثة البيولوجية.

والمستقرى لتاريخ الوجود البطريكي ونظامه الأبوي /الذكوري ثقافة وتشريعاً يدرك انتفاء الثنائية واختزالها في قطب أحادي هو النوع، يرفض الفردية كوجود وشريك فاعل في البناء الاجتماعي والحضاري، بمباركة وتأييد بنية اجتماعية وسيكولوجية تحدد الفاعل والمنتج والقوي والضعيف والمسئول والقائم.

اتجهت الروائية في نقدها لثقافة لثقافة الذكورة ممثلة في صورة "الأب" باعتباره سفيراً للمركزية البطريكية ومجسداً لصورتها وصداها الثقافي والسلوكي إلى اعتماد أساليب متنوعة وتعددية خطابية تراوح بين اللوم والإنكار والتنديد والرفض وكشف درجات الأذى والألم، متجاوزة في ذلك القطيعة واستراتيجياتها في التقويض والثورة على القيم والموروث العقائدي والأعراف الاجتماعية، كما هو سائد في المنظومات الذكورية التي تبنت الأيديولوجيات البديلة بدل التعديل وإعادة البناء محاولة الإصلاح والتغيير ضمن مسار وسطي معتدل وعقلاني يحترم الخصوصيات الثقافية ويدعو للانفتاح على ثقافات الغيرية والاختلاف.

فهي ترفض غيرته المبالغة وهي طفلة تركب لأول مرة دراجة هوائية بمساعدة ابن الجيران، وتتأثر لدرجة إنكار هوية الأب بعد استخدامه للغة الجسد في لفظه (ساقياها) « في اللحظات التي تلت، كانت حالة من الغيم المتواصل بالنسبة إلي، من اللاواقعية. أخالي قلت لنفسي لأول مرة: ((هل أبي لا يزال هو أبي؟ ربما أصبح فجأة شخصاً آخر؟)) لم أحتفظ من جملته النابضة، مثل سهم نحاسي يتردد صده بيننا، إلا بهذا اللفظ العربي؟ ((ساقياها)). ماذا يعني هذا يا ترى: جملته، نبرته، غضبه كونه لأول مرة يهجم على ((غرفتهما))، هذا العرين؟»⁽²⁾ وتتجاهل التفسير والتأويل للموقف المرفوض، فلم تبحث عن تبرير وتسويق للحركة العنيفة فعلاً ولللفظة القوية قولاً، فكتفت بالتلميح المفتوح للقراءة متعددة الدلالات للأثر وللمتلقي المنتج في اختيار الأسباب والبحث عن الدوافع والاكراهات « خيل لي أن أبي اجبر على شيء غامض فجأة... »⁽³⁾

¹ - المدونة، ص، 123

² - المدونة، ص، 63

³ - المدونة، ص، 63

تتجلى المفارقة في رسم لوحيتين متناقضتين تشكّلان جدلية وصراعا ثقافيا ودوديا تجسده في المشهد الأول نماذج الثقافة الشعبية والتزاماتها وإقراراتها الداعية إلى إقامة الحواجز بين الأب وابنته، فارضة قوانينها وتشريعاتها المقدسة التي لا تقبل الرفض والاجتهاد والتغيير، مما ينتج سلوكا مزدوجا متضادا بين اللحظة والأخرى في الذات نفسها والشخصية عينها « حين أخرج من البقالة، ولوحتي تحت الذراع، يغادر أبي لعبة الدومينو. يتركني امشي بمفردي متقدمة إياه. لا يأخذ يدي كما في الصباح، أو بالأحرى كما في السنتين الأوليين عندما كنت أصغر سنا»⁽¹⁾

يمثل "الأب" في هذا المشهد التصويري واجهة وقناعا تختفي خلفه ثقافة عربية وعادات اجتماعية تُشرّع للعلاقات الأسرية والاجتماعية وتحدد ضوابطها وأخلاقياتها في منظومة تفرض طقوسها في اللباس والمشي وتُحوّل لنفسها حق الرقابة والتقييم والتقويم « ليس في الشارع سوى الرجال. الآباء الفرنسيون هم أيضا لا يمدون أيديهم لبناتهم، بيد أن هؤلاء البنات لسن خجالات من تنوراتهن المغضنة التي تصل إلى ركبتن. أما أنا فالعكس هو الصحيح. وفي الرصيف الآخر، نظرات الرجال العرب مصوبة نحوي فقط »⁽²⁾. إن رفض سلوكيات الأب هو إدانة لهذا الموروث الثقافي القمعي الذي يمنع تجليات عواطف الأبوة ووجدانيات البنية الأسرة، انه رفض وإسقاط لستار الثقافة الذكورية التي صنعت من "العين" أداة وآلية للرقابة، باسم القيم والدين والعرف.

6. الجسد باعتباره معيارا للذكورة

تبدو الجسد مكانة رئيسية في الفكر النسوي، وهو الموضوع الأكثر حضورًا في المدونة السردية النسوية، وتواتر حضوره فيها يحيل على درجة كبيرة من الملازمة بين الجسد الأنثوي والسرد، فقد شغلت الحركات النسوية، والنقد النسوي بموضوع الجسد بشكل كبير في مسيرتها الإبداعية والخطابية الهادفة إلى تقويض النظام الأبوي، وتحرير الجسد ما هيمنه الذكورية بمختلف مظهراتها وتجلياتها.

وتعمل الثقافة الذكورية على إخضاع الجسد وتلوينه بمواصفات ترضي ميوله ومبادئه وقيمه وحتى غرائزه، فقد شكّل الجسد على مرّ العصور وفي كلّ المجتمعات المركز الأساس لتمفصل مختلف السلط الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

وتتشغل البطيركية بجسد المرأة على وجه الخصوص، باعتبار كون المرأة حاجة لا قيمة، فبدلاً من أن كون الجسد مفهوماً للحرية والتعبير والإنتاج، تحول إلى حقل وميدان للدلالة على الانصياع والخنوع والتماهي والاستكانة، وخضعت لماهية جسدية مختزلة في المتعة والإنجاب، وغلبت عليها نعوت الإغراء والفتنة والأنوثة والسحر والحيوية وغيرها من الصور النمطية التي أسستها المرويات والسرديات من الضعف العقلي والغلبة الوجدانية والليونة، مما أحالها إلى كائن غير قادر وعاجز عن العطاء الفكري والإبداعي مثل الماهية الذكورية وكانت هذه الأحكام اللاموضوعية، المبنية على أسس تخدم مصالح مجتمع تعود فيه السلطة لنفوذ الهيمنة الذكورية.

فكانت هذه الثقافة بأنظمتها دافعا وسببا ليتبوأ الجسد مكانة رئيسية في الفكر النسوي، وهو الموضوع الأكثر حضورًا في المدونة السردية النسوية، وتواتر حضوره فيها يحيل على درجة كبيرة من الملازمة بين الجسد الأنثوي والسرد، وكل ذلك لم يقع بمنأى عن حضور المرأة بمختلف صورها، وقضاياها في الكتابة السردية.

¹ - المدونة، ص، 111

² - المدونة، ص، 111

فالجسد تيمة دائمة الحضور في كتابات آسيا جبار كمحمول ثقافي واجتماعي ولغوي يتمظهر من خلال التفاعل والبناء الفني، ولكنه يمثل انعكاسا للثقافة المركزية الذكورية للمجتمع البطريركي الذي يحدد المسموح والممنوع والمباح والمحرم « كنت المنبوذة إذن- أو بالأحرى كنت ذلك الزوج من السيقان الذي كان عليّ أن أسجّره للمشي ليس إلّا»⁽¹⁾

يكشف الموقف عن صراع مرجعيتين متضادتين حيناً ومتناقضتين في أحيان أخرى، بين الثقافة المحلية والأخرى الوافدة، بين العقيدة الإسلامية (اللباس الإسلامي) والحدائق بواقعتها، وفي هذا المناخ وهذا الفضاء اضطربت الذات بين أصالة محلية وواقع راهن، وتحول الجسد إلى مادة للصراع، تنعكس فيه ثقافتين مختلفتين روحاً ومادة « ترى هل حصل ذات مرة أن اندهشت لأن أمي، على خلاف جارأتها- اللاتي تحولن من جارات بسيطيات إلى صديقات لها - لا تقوى أبداً، بين عشية وضحاها، أن تخرج ((عارية)) وفق اللفظ العربي المستعمل آنذاك- أي الحايك ((الإسلامي))- ومن ثم عدم الظهور علانية كالأوروبيات اللواتي نصفهن ب ((العاريات)). هؤلاء الأوروبيات اللواتي يحترمن الجميع، بمن فيهم نحن؟ »⁽²⁾

تثير الكاتبة مسائل أيديولوجية وأخرى عقائدية وثالثة سوسي- ثقافية، تنتج انساقاً ثقافية تستوجب التفكيك والتحليل والتأويل والقراءة، فهي ترى بخطاب الحدائق ضرورة التخلص من أزمة اللباس والأقنعة الشكلية التي تحول دون الاستثمار في المرأة عقلاً وفكراً بدلاً من التركيز على مركزية الجسد باعتباره مصدراً للفتنة والإغراء.

تستدل في إثبات قناعاتها بأدلة حجائية اقناعية مضمونها احترام "الأهالي" للأوروبيات وهن غير ((محجبات)) متناسية قيمة اللامبالاة المحلية لكل ما هو أجنبي، بالإضافة إلى القمع الاستعماري المسلط على الأهالي في حالة اعتدائهم على الفرنسي/المعمر.

لعل الباحث يرصد تسويغاً للكاتبة باتخاذها هذا الموقف المناوئ لسلوك "الأب" بسبب مرحلتها العمرية التي تملي عليها تقليد نظيراتها الأوروبيات، ولكنها أصرت على مناهضة نهي "الأب" ورؤيته وقراره في مرحلة نضجها، فهي تكرر المشهد معبرة عن حريتها وفرحتها بمغادرة فضاء القرية المقيد والمكبل للحريات والخنق للتنفس الإبداعي وسلطة "الأب" الذي يرى في ركوب الدراجة تمرداً على القيم والعادات والدين. إن ثورتها كانت انتفاضة ضد الأصول والمرجعيات والعقيدة، فتلونت بأطياف العبثية والعدمية للهوية والوجود معا « يحق لي الآن أن ابتسم وأنا أتذكر هذا المشهد الطريف، بيد أنه خلال العشرين سنة التي تلت، عندما أحاول في أول فرصة مسك مقود الدراجة في حديقة أو في فناء أو في درب من دروب القرية، جعلني صوت الأب الرقيب والصداق الهائل الذي ألمّ بالفتاة المبعثة، أعدل عن ذلك. لكن العدول عن ماذا؟ عن تحدي الأب والقول، من الآن فصاعداً، لشبحه: ((أنا على حق، وقد انتصرت، وفي مقدوري أن اركب دراجة وإظهار ساقّي ورجليّ وربتيّ وركبتيّ وحتى فخذيّ!)) وكذا أن اضحك وأحب السرعة ونسيان العالم والقرية.... أنا حرة ورجلاي لا تحملاني أو تجعلاني اركض فحسب، بل تحركان آلة ودراجة ليست للبنات بل للفتيان، كي تجعلني اعبر أخيراً القرية وشارعها الأكبر..... »⁽³⁾

لا نلمس في خطاب الروائية الرغبة في الثورة عن الأبوة والتجرد من صلات الدم وروابط الانتماء والنسل، فروح الثورة تكمن في تحرير "الأب" وتخليص فكره من رواسب الذكورية المهيمنة التي جعلت من جسد الأنثى عيباً وعاراً ومعيّاراً لاكتمال الرجولة المتخيلة «أكلُّ هذا كي أنسى أبي؟ كلا، بل لكي يستقبلني فجأة عند وصول ((سباق القرن)) هذا ويقبلني ويشرفني، بأن يعترف بأن ارتياد الفضاء هكذا بسيقان بنت بطلّة في سباق الدراجات

¹ - المدونة، ص، 67

² - المدونة، ص، 69

³ - المدونة، ص، 75

يساوي جميع جوائز نهاية السنة الدراسية وجميع النجاحات المستقبلية من تلك التي تشرف...»⁽¹⁾ فإذا كانت الحركات النسوية تنادي بالقطيعة النهائية بين الذات الأنثوية وكل انتماء ذكوري بصرف النظر عن بنيته البيولوجية والجينية، فإن الكاتبة لم تتبن رؤى التمرد والثورة بقدر ما آمنت بالتغيير والتبديل والتحوير ومدّ جسور التواصل بين الأجيال والثقافات ضمن اطر عقلانية مشروعة.

7. مرتكزات المركزية الذكورية؛ استثمار العرف والثقافة الشعبية

لم تجد الذكورية حقلا مناسباً للاستغلال والاستثمار أفضل من الثقافة الاجتماعية، فالأعراف والفلكلور والعادات وأوعية لمحمولات فكرية ذكورية، تستغلها المركزية البطريكية لبث أفكارها ومعتقداتها، مستغلة قيمتها في الوعي الجمعي الاجتماعي والشعبي الذي يقرنها بالدين والقداسة. ومن أجل استمراريتها تسعى الهيمنة الذكورية في نسج وبناء وصناعة أجهزة أيديولوجية دعائية تروج لمنجزاتها وتمنع وتحرم وتقمع كل محاولات الإنكار والثورة والتمرد والتجديد.

وتقع وراء كل ثقافة ذكورية/أبوية منظومة فكرية تستغل المقدس والثوابت الاجتماعية والوطنية لحماية فكره من خلال تجهيز وإنجاز أدبيات وتشريعات وقوانين تقف حاجزا وعائقا أمام كل مبادرات الاجتهاد والتغيير، كما تحصن نفسها بمقولات انتقائية من التاريخ (بطولات القادة الذكور) ومشاهد من الدين (الدين الوظيفي) وتجارب واقعية لإضفاء المشروعية والعقلانية على أفكارها ومواقفها.

تسخر الروائية من جنسنة أعضاء الطفولة وتلويينها بأقنعة اللذة وجعلها مصدرا للإغراء والفتنة، كما تدين فكرة التعميم والشمولية التي تجعل الشارع فضاءً لاستعراض الغرائز وترى أن الفكرة مبالغة وتطرف من الأبوي للحماية والمتخيلة « وفي صلب هذا الحظر الذي أصابني كانت كلمة ((ساق)) بمثابة لوثة! كان ذلك يعني أن أي طفل وأي كهل أو عجوز بالضرورة متلصص داعر أمام الصورة العارية لساقني بنت مفصولتين عن بقية جسدها، نقود دراجة في الفناء! »⁽²⁾.

ترفض آسيا جبار الغيرة الجزائرية، وترى فيها ظلما لوالدتها وظلما لمجتمع قروي باتهامه بالنظر والتحديق المكشوف والمريب، مما يدفع الأب للغيرة وهي صفة اجتماعية مشروعة تتعلق بالعرض والشرف ولكن ما لا تتقبله الكاتبة هو ردود الأفعال العنيفة المصاحبة للفعل. فهي تدعو إلى معالجة القضايا الاجتماعية بالعقل والتأمل والإرشاد والإصلاح للقضاء على الفعل ورد الفعل « بعد سنوات خلت، حصل أن ذكرتني غير مرة بفضاظة أبي وصرامته التي لطالما طبقها عليها، وهي المتدثرة بالحايك التقليدي، عندما يتعين عليهما السفر كزوج، وفي حافلة مملوءة أحيانا بقرويين يغريهم النظر إلى عيني أمي - وهما عينا جميلتان تخفضهما بعناد ... ((كان قلبي يخفق طوال السفر من شدة خوفي من حدوث مشاجرة)) »⁽³⁾.

من المسائل والقضايا الجوهرية التي شغلت فكر الروائية وسردها مسألة "الشرف" والتي ترى فيها فيها إجحافا في حق الأنثى، فالمجتمع يحملها مسؤوليته ويرأها الحارسة الأمينة له، فهي الحامية لشرف الأسرة والمجتمع والأمة عموما. فمنذ الولادة والميلاد تتجه الأنظار نحو "الأنثى" بالرقابة والتحسين والعقوبة حفاظا على شرفها الذي منه تنال الأسرة وساح الاستحقاق الاجتماعي الذي يخول للأب ومن ورائه تراتبية الأسرة من رفع لواء الشرف ومواجهة المجتمع « يستدعيني إلى محكمة الأجداد المختصة في المحظورات ضد النساء ذوات سن الخامسة - أو ثلاث أو أربع سنوات - إلى غاية سن البلوغ وإلى غاية ليلة الزفاف، قصد التنازل عن هذا الحق الثقيل جدا لصالح الزوج الأول أو الثاني أن اقتضى الأمر، ولكن الأب - كل أب - يمكنه

¹ - المدونة، ص، 76

² - المدونة، ص، 66

³ - المدونة، ص، 73، 74

تنفس الصعداء أخيراً، والتخلص من عبء واجب التخفي»⁽¹⁾ لا تكمن إدانة الموروث (الأجداد) في رفض الشرق ونبهه كقمة أخلاقية واجتماعية ولكن في تحميل المرأة مسؤولية وحدها.

فالشرف لا تحدده الأنثى، فهو ميثاق اجتماعي ديني لا يتجزأ ولا ينقسم ولا يرتبط بموروث تراثي فلكلوري، بقدر ما يتعلق بالإنسان عموماً فيدفعه نحو الابتداع والتميز والتفرد.

تحفل الرواية بنقد متعدد الدلالات والتوجهات والمنطلقات الفكرية، فقد شملت الانتقادات قضايا ذكورية جسدها شخصية "الأب" باعتباره محور الأفكار مركزية الأطروحات، كنموذج حاضر في المجتمع ومشارك في اتخاذ قراراته ومنها الرغبة في تفضيل الذكور عن الإناث « إن الرجل العربي، أب الأسرة، يجب أن يمشي وحيداً، ونظرته مصوبة نحو الأطفال (في الغالب الأعم الأطفال الذكور... ماذا لو كنت فتى؟»⁽²⁾. وفي عقله أيضاً نظرة مميزة للوجود الأنثوي المتمثل في الزوجة، فيجب بقاؤها في البيت تحت قناع العفة والشرف، فالخروج فوضى وتحمور وتمرد على سلطة المبادئ والقيم ولذلك فالخروج لا يكون إلا بعذر ولظرف مقنع وضروري «أمي، حتى وإن كانت تعيش معتقلة كزوجات الأهالي، تذهب ظهيرة كل يوم خميس إلى الحمام ملفوفة في الحايك الأبيض غير منشغلة بكونها الاستثناء في القرية»⁽³⁾ وتصنع العادات الاجتماعية شخصية متوهمة ومتضخمة من خلال ثقافة القداسة والهيبية التي تصنعها للأب، فيتجرد من العاطفة حفاظاً على صورة غطية بناها مجتمع بدائي في التفكير والسلوك « في كل مرة أدرك بشكل غريزي بأنه لا يجب أن ارتقي في أحضانه: فنحن بالخارج أمام الملأ. والحال عند ((ذوينا)) لا نقبل وجنتي الأب (علماً أني لا ينحني»⁽⁴⁾.

8. خاتمة

تمكنك أسيا جبار من إثارة قضايا من المسكوت عنه في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أو رواية المهجر، بالنقد والاستهجان. فكان النقد للعادات والموروث الاجتماعي باعتبارها ثقافة تمثل الفكر في طفولته واستجابة لرؤى وتصورات مجتمع مغلق، رافض للمناقشة والتغيير معتقداته وخصائصه الثقافية دون الانسلاخ عن هويته والانصهار في ثقافة الغيرية.

لقد استهجن العديد من السلوكيات دون تمرد عن القيم والدين مثلما تنادي به الحركات النسوية المتطرفة ويمكن إجمال أهم الأطروحات فيما يلي :

- 1- تظاهرات صراعات الباحثة في أطروحاتها ومقارباتها في أشكال متعددة منها الرفض والتنبيه والإصلاح والتحليل الاجتماعي مع عجز في إدراك العواطف المركبة والمتداخلة بين الأبوية الجنينية الراغبة في المحافظة على نسلها ورحمها للاستمرارية والمسؤولية.
- 2- جدلية التشكيل الاجتماعي في هندسة صورة الأسرة وتحديد العلاقات بين الأفراد خاصة ما تعلق بتقديس الأعراف والعادات، مع ضرورة إعادة النظر بالتعديل والرفض لقوانين التأصيل لبنية الأسرة والمجتمع ومنها مسائل الزواج واللباس وارتياح المدارس ونوع التعليم.
- 3- رفض طقوس الولاء الاجتماعي الذي بنحو نحو القداسة بتوظيف الدين ومرجعياته وانتقاء ما يناسب بنيته الفكرية ويخدم مصالحه وتوجهاته
- 4- تفكيك البنية النفسية للأب وتبيان صراعه الداخلي وتضارب العواطف؛ عواطف الأبوة، وعواطف رب الأسرة، وعواطف المعلم /القدوة /المرابي المنزه عن الخطأ

1 - المدونة، ص، 72

2 - المدونة، ص، 114

3 - المدونة، ص، 116

4 - المدونة، ص، 150

5- تجاوز الدخول في الصراع والاصطدام بالمعتقد الديني في نصوصه الصريحة من قرآن وسنة.